# خطوات على الشلال

# سلطان الزمان

بقلم: محمود تيمور

السماء صحو ، والجو رائق ، والرياح تؤثر الهوادة واللين ، والنيل تتلألأ مويجاته تحت أضواء الشمس المتألقة .

هذا يوم فريد ، جدير أن نقضيه فى ضيافة « سلطان الزمان » .

ولعلك لم تسمع بهذا اللقب بعد ، ولكنه لقب لرجل معروف الاسم ، طائر الصيت ... « أغاخان » زعيم الاسماعيلية الأوحد ، ومرقده هنالك على ضفة النيل اليمنى المقابلة لمدينة « أسوان » : ضريح فخم على رأس الجبل ، اختار موضعه بنفسه فى حياته ، ورضى به مثوى لجثمانه بعد رحيله عن الدنيا .

هبطنا الى المرسى ، ناخذ على الماء طريقنا الى الضريح ، فاستقبلنا زورق شراعى أنيق يحمل اسم « غزال » فامتطينا ظهره على بركة الله .

**وكان ربان « الغزال » غلاما أسوانيا أشرف على الثانية عشرة ، حسن الطلعة يدير على رأسه عمامة خفيفة ، ويحزم خصره بنطاق ، متخذا فى شارته ولهجته سمت النواتى الأصلاء .**

**والنهر فى هذه البقعة متاهة مائية، حافلة بطرائف المشاهد : خلجان ومنعرجات ، وجزر خضر كأنها نفحات من الجنة ، وصخور سود كأنها زبانية من الجحيم .**

وتراءت لنا عن اليمين ، على مطرح النظر ، رابية يشرف منها ضريح متواضع هو ضريح الشيخ « على ابن الهوى » ، وعلى الطرف الآخر من اليسار يلوح ضريح لايقل تواضعا عن صنوه ، هو قبر « الشيخ عثمان » ، وبين هذين يتربع فى عظمة وزهو ضريح « سلطان الزمان » ... ثلاثة من أهل الله اتخذوا من رأس الجبل مقاما أبديا ، ونعم الاختيار ، ففى مثل هذا الهدوء الشامل ، والجو الساجى يطيب للأرواح أن تتناجى .

ومضى الربان الفلام يثرثر ، فقال :

ان « أغاخان » قد اختار هذا المكان مقاما له ابان حياته ، لأن داء المفاصل أعياه ، ولم يكن يجد شفاءه الا فى تلك البقعة ، وكثيرا ما كان يدفن جسده فى أغوار الرمال ساعات وساعات ، فتزول آلامه ...

وقلت لنفسى :

**لعل الرجل آثر أن يكون مثواه بعد مماته ، فى المكان الذى أتاح له الراحة فى حياته ، أو لعله خشى أن تصاحبه العلة فى الدار الأخرى ، فتقض مضجعه ، وتنغص عليه عيش الخلود ، ومن ثم ألزم جسده ذلك المكان حتى ينعم بنومة هانئة بين حنايا الرمال الدافئة ، ويمرح فى بحبوحة من أحلام عذاب .**

**وانتهينا الى المرسى ، على الشاطىء الآخر ، وشرعنا نصعد : هذا درج سامق بديع التنسيق ، على جانبيه تصطف الأزاهير .**

**واعترضنا فى الطريق لافتة مكتوب فيها : « مقبرة نور السلام » .**

وواصلنا الصعود ، والخضرة النضرة تحيط بنا وسط تلك الرقعة الجبلية القاحلة ، بما فيها من رمال محرقة ، وجنادل موحشة .

وتابعنا صعودنا ، وقد خلا الطريق من الرياحين ، وقبيل أن نبلغ القمة مثلنا فى مكان ينظر النيل .... هو مستشرف طبيعى سوته يد الانسان ، فتجلت أمامنا منه صفحة النيل تخترقها الجزر والخلجان والصخور وأشرعة القوارب ، ومن وراء ذلك صفوف النخيل وأبنية الفنادق : مزاج رفيع من طبيعة فطرية ، ومظاهر حضرية ، لوح مصور اختلط فيه المعقول واللامعقول ، والواقع وما فوق الواقع ، الوعى واللاوعى ، الرمز الخفى والحقيقة العارية ، وأنت حيال هذا اللوح المبدع مبهور العين بفتنة ، مملوء النفس من اعجاب .

وقاربنا المبنى العظيم ، وواجهتنا لافتة ثانية قرأنا فيها : « مقبرة الأغا خان الثالث » : بناء مربع فى جانب منه قبة عالية ، وعلى عتبة الباب خلعنا أحذيتنا ، ودخلنا المزار خاشعين ، فكل ما هنالك يشعر بالمهابة والاكبار ، بما له من قدسية وبما فيه من روعة فن اسلامى عريق ، يزيده ترف حضارى بهيج .

المرمر الأصيل يتألق حواليك ، فى كل ما يقع عليه نظرك ، لكأنك داخل قوقعة بلورية بيضاء تسبح فيها الأضواء هادئة آمنة .

وتقف تجاه القبر المظلل بالقبة العليا ذات الوشى الدقيق ، تعجب للبساطة البالغة كيف تنطوى فى حقيقتها على عظمة شامخة .

الخشوع والصفاء والسكون يحمل الى الزائر لهذا المكان اشراق الروح وطمأنينة النفس ، ولا غرو فنحن فى المكان الذى سمى بحق : «نور السلام» .

باللانسان السرمدى فى كل مكان وزمان ... لقد حيره لغز الوجود ، ومصير الجسد بعد انطلاق الروح ، وما عسى أن يكون أمره بعد حياته الدنيا طال عليها الأمد أو قصر ...

ولم تستطع الاحقاب على ترادفها أن تحل اللغز ، ولا أن تهدى الحيارى وان هذه الحيرة ازاء المصير المجهول هى التى أذكت الرغبة فى خلود الذكر وبقاء الأثر .... ما أشبه الأهرام وما اليها من معابد ومقابر خلال عديد من القرون ، بذلك الضريح الجديد ، ضريح

الزعيم الهندى الكبير ، فى ذلك الوادى الذى تهيم فيه أرواح الفراعين .

هبطنا الى زورقنا الرشيق « الغزال » ، وتلقانا الربان الغلام ببسمة ترحاب كشفت عن أسنانه المنسقة الناصعة .

الى أين يا «غزال » ؟

ـ الى جزيرة النباتات .

وانطلق الزورق على الماء ، واضواء الشمس تترقرق لامعة كانها صفائح من الفضة طافية على الموجات ، وجزنا فى طريقنا بجزيرة « الفنتين » ـ واسمها العصرى جزيرة أسوان ـ وهى حافلة بالآثار ، اذ كانت فى البدء موطن الأهلين ، ثم امتد منها العمران الى الضفة الأخرى ، حيث تقوم المدينة العتيدة ، وانها لجزيرة شاعرية تعمرها غابات النخيل ، وفى طرفها يقام اليوم فندق عظيم ، سوف يكون له شان فى تعصير الجزيرة ووصلها بالحياة الحضرية الرفيعة ، بعد أن عاشت عصورا متطاولة وهى قطعة من الماضى السحيق .

**وانتهى بنا الزورق الى جزيرة النباتات ، فصعدنا اليها ، ولم نكد نخلو فيها حتى هلت علينا جوقة موسيقية شعبية قوامها اثنان من أهل الفن : ضارب دف ، وعازف ربابة . وانبعثت الأنغام تحيى الزوار ، وبدانا جولة ممتعة فى الحديقة الساحرة ، وانغام الدف والربابة ترق خلفنا ، اذ تمتصها الرياحين والأفنان.**

**درب طويل ممدود ، تتفرع منه دروب ، وعلى الجانبين حياض تربو فيها غرائب النبات .**

وتدفع بخطاك وئيدا يغمرك الظل الوارف ، ويسرى فى الجو حولك أنسام هفهافة مضمخة بالعطور ، مختلفة الأريج ، وتنظر هنا وهنالك ، وعلى سمعك يهب صوت الدليل وهو يعدد لك أصناف ما تنبت الأرض ، ويذكرلك أسماءها فى دقة عارف عليم ، انها حقا لمجموعة ضمت الطرائف والعجائب من أزهار وأشجار تباينت مواطنها الأصيلة فى أرجاء الشرق والغرب ، منها نباتات ملساء رهيفة كانها أطفال رقاق يتناغون بأصوات لطاف ، ومنها نباتات صلبة تعلو بهاماتها وتبسط سواعدها كانها أحراس عتاة .

احضر فى ذهنك اسم نبات أى نبات واصطنع الرغبة فى أن تراه .. فانك لا تلبث حين تطلبه أن تجده على مقربك منك ... لكأن فى أصبعك « خاتم سليمان » ، متى هجست فى نفسك حاجة ، هتف الخاتم لك : لبيك ، واذا الحاجة نصب عينيك ! !

وتبلغ آخر المطاف ، وكأنك فى طراز جديد من « سفينة نوح » ، سكانه من عالم النبات لا من عالم الحيوان ، ولكأن الجزيرة طيف من أطياف الجنان فيها من كل ما تنبت الأرض زوجان .

وفى طرف الحديقة مثلث معشوشب، يظلله من الهند شجر جوز ، ومن « كوبا » نخيل ، وعلى مد البصر يترامى النيل ، وقد بسط أذرعا له ، على شواطئها جبال حمر هى موطن الحديد . وهنالك على الضفة الأخرى تتبوأ « أسوان » عرشها كانه الهة من الاهات الفراعنة يحفها جلال .

وسألت دليلى :

أثمة جديد ؟

ـ لم يبق الا « كلبشة » ...

ـ وما « كلبشة » هذه ؟

ـ معبد عتيق شيد فى العهدالاغريقى الرومانى قبل ألفين من السنين ، للاله «مندوريس بن» ايزيس «و»أوزوريس» .

واعتدل الدليل فى وقفته ، وعقد ما بين حاجبيه ، وأكسب وجهه سمات الوقار العلمى ، وانطلق يتحدث كأنه محاضر يعتلى منصة الدرس فى أحد معاهد الآثار .

هذا المعبد أول أثر قديم ضخم يخضع لتجربة النقل من مكان الى مكان، تمهيدا لنقل المعبد العظيم فى « أبى سنبل » .. لقد قصوا « كلبشة » فى دقة واحكام قطعا بلغت خمسة عشر ألف قطعة ، ونقلت القطع على مراكب الى مكان يبعد عن مكانها الأصلى خمسين كيلو مترا ... ولبثوا فى اجراء ذلك عامين ، برعاية « اليونسكو » وباشراف جماعة من مهندسى الألمان . وأما النفقات فقد تكفلت بها « المانيا الغربية » هدية منها « للجمهورية العربية المتحدة » . وان هذا العمل يا سيدى ليعد من أكبر الأعمال الهندسية التى تخصص بها العلماء فى عصرنا الراهن ، وهو ...

ـ حسبك أيها المحاضر الغزير المادة، وشكرا لك على ما قدمت من معلومات ...والآن أخبرنى : كم تستغرق الرحلة الى « كلبشة » من الوقت ؟

فبسط ساعده بحركة مسرحية رائعة ، واستخبر ساعة يده الذهبية المتوهجة ، ثم قال :

سنتأخر عن موعد الغداء حتما ...

ـ اذن ... فلنرجىء ...

فلاحقني مقاطعا :

الأثر بالغ الشـــأن ... لزام أن تزوره ، وان فاتك في سبيله طعام يوم بأكمله ..

فأطرقت هينهة ، أقول مفكرا :

ولكن هذا مرهق ...

**ثم رفعت رأسي ، وتلفت حولي ، فلم أجد للدليل من شبح ...**

**وما هي الا أن أقبلت علينا سيارة أجرة، وهو فيها ، وصاح بي متهلل الوجه :**

**انت محظوظ ... عثرت لك على سيارة فاخرة ...**

**وقفز منها يفسح لنا أن نركب .**

**ومضت بنا السيارة تسابق الريح .**

**وتبدى لنا معبد « كلبشـة » يتربع على هضـبة عالية مشرفة من بعيد على « السد » ... انه يواجهه ، وكأنه يحييه ويسامره .**

**وصعدنا الى رأس الهضـبة ، فتجلى لنا المعبد كامل المعالم ، ولكأنه منارة ترشـد الزوار الى مكان السـد ، أو لكأنه ديدبان الماضي يحرس منشـآتنا العصرية الجديدة .**

وطوفنـا بأرجائه وقتـا ، نقتحم ساحاته ، ونجوز بقـاعاته ، ونمر بين عمـده ، ونتطلع الى نقوش جدرانه ، مفتـونين ببـدائع الفن الفرعـوني الباهر ...

معبد « كلبشـة » كسائر المعابد العتيقة في ضخامته وروعة هندسته ، ولكنه يمتاز عنها بشيء ، هو أنه انتقل بكل عناصره من موطن الى موطن .. انه أول مهاجر من معابدنا ، يتخذ له مقاما جديدا بعد طول ثواء ، لينجو من غمرة الماء ... وانها لخطوة موفقة نرجو أن تتلوها خطوات للمعابد الأثرية ، حين تلجئها الضرورة الى هجرة وارتحال ..

أيها المعبد القديم في موطنه الحديث :

ان كنت مفخرة الماضي عمارة وفنا ، فانت مفخرة الحاضر في قدرته على أن ينقلك دون أن يمسـك أذى ، لتنعم بمقامك في جوار السد ، ولتكونا رمزين لحضارتين عظيمتين : حضـارة الأمس المجيد ، وحضارة اليوم الجديد !